"ولدت الكيانات الصليبية عرجاء،

فقد أخفق الكيان الصليبى فى إحداث

نوع من الإندماج الإجتماعى بين عناصر

سكانه ذوى الأصول المختلفة"

كما مر علينا فى الفصل السابق رأينا كيف أستطاع شرذمة من الأوروبيين إقتطاع جزء عزيز من شرقنا العربى مكونين أربعة كيانات غربية على أرضنا ـ مملكة بيت المقدس، كونتية طرابلس، أمارة أنطاكيا، كونتية الرها ـ فى 1099م، بعد إرتكابهم جرائم تطهير عرقى فى جميع الأماكن التى شاء سوء حظها مرور هؤلاء البرابرة عليها مخلفين لوحة دموية مليئة بجثث أبرياء كل جريمتهم أنهم حلموا بحياة آمنة على أراضيهم وأراضى أجدادهم، كل هذه ليس لقوة الصليبيين بقدر ما كان بسبب ضعف وتفرق العرب، مما أصاب المسلمين بضربة موجعة لم يصابوا بمثلها من قبل.

بالرغم من أن الفرنج كانوا بعيدين عن الكثرة العددية إلا أن تسليحهم الجيد والمتمثل فى وسائل الحماية التى تمتع بها فرسانهم ومشاتهم على حداً سواء، وإتحادهم الذى ما أن أنفرط هذا الإتحاد حتى إنهار هذا الصرح الذى شيدوه، والمسلمون بالرغم من أنهم أكثر فى القوى البشرية والقدرة العسكرية، إلا إن الفرقة والتشرذم الذى سيطر عليهم أمال ميزان القوى لصالح الفرنج،

نظام الحكم الصليبى

نقل الصليبيون نفس النظم الإقطاعية المطبقة فى أوروبا وخصوصاً فرنسا، حيث أنه النظام السياسى الوحيد الذى يعرفه الغرب إينذاك، وإن أختلفت نظمهم السياسية والحياتية لإختلاف المدن والأقاليم التى جاء منها أفراد الحملة الأولى،

بالنسبة لمملكة بيت المقدس كان أسم عاصمتها (القدس) المهيب يضفى رونق عليها الأمر الذى منح حاكمها لقب الملك، مما أعطاه بعض السلطة على باقى الكيانات الصليبية، وأن كانت ليست سلطة قوية مطلقة، بل أقرب ما تكون لإتحاد كونفدرالى، وتزيد هذه السلطة أو تنقص تبعاً لشخصية الجالس على عرش بيت المقدس،

وكأى قوة إحتلال نُظمت الكيانات الصليبية والمجتمع من أجل الحرب، ويفترض أن تولّى منصب ملك بيت المقدس يكون إنتخابى، وإن لم يُلتزم بهذا الشرط، وكان ملك بيت المقدس هو القائد الأعلى للجيش، حيث يقوده خلال المعارك ويرفرف فوق رأسه الراية الملكية البيضاء الموسوم بها أربعة صلبان حمراء فى جوانبها علاوة على صليب أحمر كبير بوسطها،

ويعتبر الملك أمير أول بين بارونات وليس له عليهم سلطة مطلقة، ويقسم الملك خلال حفل تتويجه على المحافظة على أملاك الكنيسة ومعاونة البطريرك وإطاعته[1]، ولم يمارس الملك سلطته مباشرة إلا فى مدن عكا وصور ونابلس والقدس، أما باقى مدن المملكة فكانت تدار من قبل البارونات والكونتات حائزى الإقطاعات،

والملك مطالب بعدم إتخاذ قرار إلا بعد مشورة أمراءه، كما لا يحق له عزل أمير من إقطاعه إلا بقرار من المحكمة العليا، التى كانت تتألف من كبار بارونات المملكة وممثلى هيئتى الهيكل والإسبتارية، بالإضافى عن ممثلين عن رعايا المدن التجارية الإيطالية، تحت رئاسة الملك، وتضطلع بالقضايا المختصة بالنبلاء، ولا يمكن لأى مرسوم ملكى أن يصبح قانونياً إلا بموافقتها، الأمر الذى منحها سلطة تشريعية، والتى كانت تختلف عن المحكمة البرجوازية والتى كانت تختص بالفصل بين الأحرار من طبقة العامة البرجوازية الوسطى من الفرنج، والتى كان يرأسها فيكونت المدينة[2] وهو ممثل الملك، يعاونه أثنى عشر محلفاً من اللاتين الذين ولدوا أحرار، ويتم إختيارهم فى الغالب من البروفانسيين، ويستطيع المتهم إختيار أحد هؤلاء المحلفين ليقوم بدور المحامى بالدفاع عنه، بشرط عدم تدخله فى إصدار الحكم، وتعقد المحكمة البورجوازية أيام الأثنين والأربعاء والجمعة أسبوعياً، عدا ايام العطلات والإحتفالات العامة والحروب،

ونظراً لزيادة نفوذ الجاليات الإيطالية فى الشرق، ولما تتمتع به من حكم ذاتى فى أحياءها التى خصصت لها نظير دورها فى إحتلال المدن الساحلية،

[1] قسم التتويج الملكى ، أننى من الأن فصاعداً أكون خير عون مخلص لك (البطريرك) وسوف أدافع عنك ضد كل من يناصبك العداء فى أنحاء المملكة الصليبية ، وأننى سوف أحترم قوانين المملكة وأصون قوانيين هؤلاء الملوك الصليبيين السابقين الذين هم أجدادى ذوى الذكرى الخالده المباركه

[2] حاكم المدينة وهو منصب غير وراثى

والنشاط التجارى المتنامى بسبب موقع الشرق المتحكم فى التجارة العالمية، تم تشكيل محكمة الموانئ، والتى أتخذت قوانين مدينة أمالفى نموذجاً لها، وكانت تختص بالقضايا التجارية، والقضايا بين أبناء الجالية الإيطالية بعضهم البعض أوبينهم وبين باقى الصليبيين، وكانت تعقد فى الحى الإيطالى من كل مدينة، ويترأسها القنصل الإيطالى،

وتم تنظيم السلطة القضائية على أساس قوانين "الأسيس" الشهيرة، وهى مجموعة من القوانين الفرنسية فى الغالب بالإضافة لبعض الأعراف المنتشرة فى أوروبا مضافاً للتشريع الرومانى، تم تجميعها بناء على طلب الملك بلدوين الأول،

ويحتفظ الملك بإقطاع ممتاز[3] مكون من مدينة القدس، بإراداتها من عوائد الحجاج المتدفقين من أوروبا، ونابلس الشهيرة بخصوبة أراضيها، وعكا وصور أكبر ميناءى بالشام، وأضيف للدومين يافا وعسقلان والعديد من القلاع الداخلية، ويتبع الملك قوات مشاة (سرجندية) تبلغ 5025 جندى،

ويلى الملك فى السلم الأقطاعى أربعة بارونات وهم أمراء الجليل ويافا وصيدا، على كل منهم تقديم مائة فارس فى خدمة الملك أثناء المعارك، ولورد شرق الأردن الذى عليه تقديم ستين فارساً، وعلى كل مدينة من مدن الملك تقديم عدد معين من الفرسان ثقيلى العدة، فالقدس عليها تقديم واحد وستين فارسا كامل العدة، ونابلس خمسة وسبعين فارساً، وعكا ثمانين فارساً، من النبلاء قاطنى هذه المدن، وأدى كثرة إيرادات الملك من الأعمال الإقتصادية الخدمية بسبب سيطرته على العديد من المدن التجارية الواقعة على الساحل الشامى، التى أتاح لها موقعها إدارة نسبة كبيرة من الأعمال التجارية بين الشرق والغرب، كل هذا دفع إلى وجود نظام الإقطاع النقدى، الذى لم يشهده الغرب، وذلك بتعيين فرسان فى خدمة الملك مقابل رواتب نقدية ،

وخضع النبلاء لقانون يجيز مصادرة أملاكهم فى حالة إرتكاب جرائم مثل التخلى عن ميناء بحرى للعدو، أو إقامة طريق تجارى مع المسلمين، أو تزييف العملة الملكية، أو تحريض الفلاحين ضد الملك، أو الهجوم على الملك أو العائلة الملكية ،

[3] الدومين الملكى

يلي هؤلاء البارونات الأربعة، حكام مدن المملكة المختلفة وعددهم أثنى عشرة أميراً، كأمير قيسارية وتبنين وسيد أبلين[4] وغيرهم، ويتبع الملك أمراء مرتبطين بيمين الخدمة الإقطاعية وهم كونت طرابلس، وكونت بيروت، وكونت صيدا، وسيد حيفا، وسيد قيسارية، وسيد طبرية، وكونت يافا وعسقلان[5]، وكونت مونتريال والأراضى الواقعة فيما وراء نهر الأردن[6]، وسيد أرسوف، وسيد أبلين[7]

وتمثلت السلطة التشريعية فى المحكمة العليا (البرلمان) والتى تتكون من أربعين نبيلاً من أصحاب الإقطاعات الكبرى، وتعقد إجتماعاتها تحت رئاسة الملك للمشاورة فى القرارات الهامة، وأن أُعتبر رأيها إستشارياً، وقد أجتمعت المحكمة عام 1123م لبحث أى المدن أولى بالحصار، عسقلان أم صور وعندما لم تحصل أغلبية تم الإلتجاء للقرعة بترك صبى يسحب ورقة عليها أسم المدينة تعيسة الحظ، كما أن المحكمة العليا هى من قامت بإستدعاء بلدوين الأول 1100م لخلافة أخيه جودفرى بالرغم من معارضه تنكريد والبطريرك، كما قامت المحكمة العليا بإستدعاء بلدوين الثانى لخلافة أبن عمه بلدوين الأول، كما قامت المحكمة العليا بإجبار آمورى بالأنفصال عن زوجته 1162م للأعتراف به ملكاً على بيت المقدس، كما قامت المحكمة العليا بدور قضائى بين بارونات المملكة،

كما أمتلكت كل إقطاعية محكمة خاصة كالمحكمة العليا تضم أفصال سيد الإقطاعية، ومن إختصاصات محاكم الإقطاعيات الخاصة تنظيم الأسواق ومراقبة الأسعار ونظافة المدينة بما يقارب إختصاصات المحتسب[8] فى المدن الإسلامية بما يبين تأثر الصليبيين بنظم الحكم الإسلامية ،

وقد حرص ملوك بيت المقدس على تحجيم نفوذ النبلاء وهو ما فشلوا فيه، ليزداد نفوذ بارونات المملكة وخصوصاً أثناء فترة حكم بلدوين الرابع المجذوم، حتى أجبر النبلاء الملوك الصليبيين على القسم بإحترام الإمتيازات والحريات التى تم منحها للنبلاء من الملوك السابقين،

---

[4] رسائل جاك دى فيترى ص188

[5] وكان هذا المنصب مختص بولى عهد المملكة

[6] أمير قلعة الكرك

[7] تاريخ بيت المقدس ص62

[8] وظيفة إسلامية ويقوم متوليه بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ومراقبة الأسواق والأسعار والتأكد من مراعاة الإجراءات الصحية أثناء إعداد وبيع المأكولات ، والتأكد من دقة الموازين

وتأرجحت العلاقة بين الملك وباروناته متأثره بقوة الجالس على العرش، وأن شهد عصر الملوك المولودين بالشرق تنامى قوة الإقطاع، منذ عهد بلدوين الثالث أول من ولد بالشرق من ملوك بيت المقدس، ففى عهده شب نزاع بينه وبين جيرارد أمير صيدا الذى لم يعر ملك بيت المقدس أدنى إهتمام وقام بتشكيل أسطول بمدينته وأستغله فى الأعمال القرصانية والتى أختصت بسلب السفن الناقله للحجاج القادمين من أوروبا، لتصل أصوات شكواهم لبيت المقدس، فتنعقد المحكمة العليا وتصدر حكمها بطرد الأمير القرصان من بارونيته، لينقل جيرارد نشاطه الإجرامى إلى أمارة أنطاكيا، لكن نصيبه هناك لم يكن أفضل منه ببيت المقدس، فلم يجد جيرارد إلا نور الدين محمود والذى فتح ذراعيه له، ويشترك جيرارد فى الكثير من المعارك فى صف نورالدين ضد الصليبيين، الأمر الذى حفز الصليبيين على البحث عنه حتى تسنى لهم القبض عليه وإعدامه حرقاً،

ويساعد الملك كندأصطبل (كونستابل) المملكة وهو قائد الجيش ويعاونه المارشال (نائب قائد الجيش)، ويشرف الكونستابل على القوات العسكرية للمملكة ومعداتها والتحقق من نسبة الخدمة العسكرية المستحقة على الأفصال التابعين للملك، كما يفصل فى المنازعات أثناء الحملات العسكرية كما يشرف على القوات المرتزقة المستأجرة بمعرفة الملك ونبلاءه، أما المارشال فيشرف على خيول الفرسان وإستبدال الفاقد منها بسبب العمليات العسكرية ويشرف على توزيع الغنائم وخصوصاً الخيول منها،

والياور (الحاجب) وهو من يشرف على قصر الملك، وعلى عمليات قسم التبعية الإقطاعية التى يقسمها البارونات للملك، وهو أقرب كبار الحاشية من الملك، والسنشال وهو من يشرف على الخزينة والشئون المالية، والتشامبرلين وهو المشرف على دخل ومصروفات الملك، والقهرمان وهو من يتولى الإشراف على القلاع وإمداد حاميات القلاع بإحتياجاتها وعلى جباية الضرائب ويترأس المحمكة العليا نيابة عن الملك إلا فى حالة نظر القضايا الإقطاعية، ويضاف لهؤلاء الأسقف ويتولى فض المنازعات التى قد تحدث بين رجال البلاط، والفيكونت (الفيسكونت) وكان يتولى رئاسة المدينة ويرأس المحكمة البورجوازية، ويتولى حفظ الأمن بواسطة قوات شرطية، ويتشابه بلاط طرابلس وأنطاكيا والرها مع النظم المطبقة فى بيت المقدس مع بعض الأختلافات المحلية البسيطة،

ونالت الكنيسة نصيب وافر فى دولة الصليبيين، فقد تم إنشاء خمسة أبرشيات وتسعة أسقفيات، والعديد من الأديرة والمنظمات المرتبطة بالكنيسة وأصبحت الكنيسة من أكبر الإقطاعيين بالشرق، كما نالت الكنيسة ومؤسساتها مساحات شاسعة من الأراضى والضياع الزراعية، وأصبح لدى الكنيسة العديد من الفرسان التابعين تبعية إقطاعية لها ،

وقد تم تقسيم مملكة بيت المقدس إلى عدة تقسيمات كنسية، أسقفية بيت المقدس برئاسة البطريرك، وأربعة أسقفيات أخرى بقيسارية والناصرة وصور والبتراء،

ولم يكن الإيمان يكفى لإطعام رجال الدين، ومهما كان إعجابهم بملذات الجنة، فإنهم كانوا لا يكرهون أن يتبعوا الطرق الأكثر راحة التى تؤدى إليها أو بعيداً عنها، فقد تمتع رجال الأكليرك بمملكة بيت المقدس بثراء فاحش، أنتقده أسقف عكا جاك الفيترى بقوله "لقد أصبحوا بمثابة أبقار تسمن على جبال السامرة، وأهتموا بأجسادهم دون أرواحهم، واصبحوا أغنياء من فقر المسيح، ومن تواضع المسيح أصبحوا متغطرسين، وأصبحوا مستبدين من ميراث المسيح، وهذا يتناقض مع مقولة الرب لبطرس إذ قال الرب لبطرس أطعم شعبى ورعيتى[9] ولم يقل جز صوف شعبى ورعيتى"[10]

والملفت للنظر أن المملكة اللاتينية ببيت المقدس والتى إقيمت بدعوة باباوية عانت السلطة الكنسية بها من تسلط النفوذ العلمانى المتمثل فى الملك، بشكل لم تشهده السلطة الكنسية بأوروبا، فقد نال ملك بيت المقدس الحق فى إختيار وتعيين الأساقفة، بل نال الملك الحق فى إختيار البطريرك من الأسماء المرشحة التى تعرض عليه، تلك الأسماء التى تدخل النبلاء كثيراً فى إختيارها ،

وأنتشرت ظاهرة موت الرجال اللاتين بالشرق فى سن مبكرة، سواء بسبب الحروب أو بدائية الحياة الصحية لديهم، أو بسبب مباذل الإنحلال الأخلاقى الذى سقطوا فيه، والتى دفعت جاك دى فيترى مطران عكا إلى الكتابة لرعيته "من بين البولين[11] يندر أن تجد واحد من بين ألف يأخذ زواجه مأخذ الجد،

[9] يوحنا 17-21
[10] رسائل جاك دى فيترى ص221
[11] البولان هم الصليبيون المولودون بالشرق

إنهم لا ينظرون إلى الزنا بإعتباره خطيئة كبرى، فهم مدللون منذ صغرهم، ويندفعون فى موج اللذائذ العارضة، وعاشوا حياة التخنث، وأعتادوا على الإستحمام بدلاً من القتال، وكانوا مسرفين فى حياة الخلاعة والدعارة، ثم أنهم غير معتادون على سماع كلمة الله، التى ينظرون إليها بإستخفاف، وأثروا ثراء فاحش، وفى أكثر الأحيان يقتل الناس هنا وهناك سراً وعلانية، بالليل والنهار، وفى المدينة هناك باعة السموم والمهلكات، كما أن فيها الكثير من المومسات وبيوت الدعارة، وصارت بيوت المومسات مكتظة"[12] "كانت عكا حافلة ببيوت الدعارة، ولما كانت البغايا يدفعن إيجارات عالية للمنازل، فإن رجال الدين إيضاً يقومون بتأجير منازلهم لهن"[13] "وهكذا فإن هؤلاء الأشرار دنسوا هذه الأماكن المقدسة"[14] "ولقد تأثر هؤلاء بالعادات الشرقية إذ كانوا شديدى الغيرة على زوجاتهم!، وكانوا يسمحون لزوجاتهم بالذهاب إلى الحمامات ثلاثة مرات أسبوعياً فى حراسة مشددة"[15]

وكما سيطر على المجتمع اللاتينى بالشرق إنحلال أخلاقى ونشطت بنات الهوى القادمات من أوروربا، كما إنتشر إدمان المقامرة ولعب النرد حتى بين ملوك بيت المقدس ونبلاءهم، حتى أصبحت الدعارة وبنات الهوى من المرافقين الأساسيين لجميع الجيوش الصليبية، لدرجة رفض فرسان جان دى برين خلال حملته على مصر مغادرة معسكرهم بدمياط حتى لا يتركوا بنات الهوى بلا عمل، الأمر الذى دفع جوانفيل مؤرخ حملة لويس التاسع التأكيد على نومه وخيمته مفتوحة الأطناب خشية أن يظن أحد أن معه فتاة ليل،

وقد كانت إستعادة المسلمون مساحات واسعة من الأراضى المحتلة، وكذلك الأعمال التعرضية التى قامت بها القوات الإسلامية والتى نتج عنها تدمير مساحات واسعة من الأراضى الزراعية التى كانت تمثل عصب الإقتصاد الصليبى، والجشع وأحلام الثراء السريع، الأسباب الرئيسية فى تفشى البطالة داخل المجتمع الصليبى، الأمر الذى أدى إلى البحث عن أعمال أكثر راحة وربحية، لتنتشر البغايا وبيوت الدعارة، لدرجة إشتهار شارع الحمراء بمدينة عكا بهذا النشاط المذموم،

[12] رسائل جاك دى فيترى ص220
[13] مقاتلون فى سبيل الله 39
[14] رسائل جاك دى فيترى ص221
[15] رسائل جاك دى فيترى ص227

كما كان من نتاج تفشى البطالة فى المجتمع الصليبى إنتشار الرشوة وشراء المناصب العليا، حتى أصبحت الرشوة هى الطريق الوحيد للوصول إلى المناصب الهامة فى الإدارة الصليبية، وغدت الكفاءة والجدارة لا وجود لها فى مسوغات شغل الوظائف،

كما أنتشرت ظاهرة إنتقال الإقطاعيات بين أيدى الباحثين عن الإرتباط بالأرامل، ولعل أشهرهم رينو دى شاتيون، الذى تولى أمارة أنطاكيا ومن بعدها بارونية الكرك بسبب زواجه من وارثتيهما على التوالى، ونفس الحال بالنسبة لمملكة بيت المقدس التى عانت من وصاية نسائية فى أخريات عمرها، من الملكة ميسلندا بنت بلدوين الثانى أرملة الملك فولك، القادم من فرنسا لعرش المملكة بزواجه منها، ونفس الحال للملك جى أسير صلاح الدين بمعركة حطين والذى أعتلى العرش بزواجه من سيبيل وريثة اللقب الملكى، حتى تداول عرش بيت المقدس أمراء من القادمين من الغرب الغير مرحب بهم بالشرق عن طريق زواج المصلحة، وقد كان رينو وجى من أكبر الكوارث التى سقطت فوق رؤوس الصليبيين،

فرسان ومشاة

ومَثّل الفارس المدرع ثقيل العدة عصب النظام العسكرى الصليبى، وكما فى الغرب كان يشترط أن ينمتى الفارس لطبقة النبلاء، "والفرنج لا عندهم تقدمة ولا منزلة عالية إلا للفرسان، ولا عندهم ناس إلا الفرسان"[16] ونظراً لمحدودية الأراضى الزراعية المتاحة للملك ليتصرف بها كإقطاعات، تميز الإقطاع الصليبى بمحدودية الأراضى التى يحصل عليها الفارس، حتى شهد الإقطاع الصليبى حدثين جديدين وهما الإقطاع الصغير الذى يكفى فارس منفرداً، بمنح الفارس إقطاع يدر مبلغ صغير يكفى مصروفاته الخاصة ويستطيع من خلاله توفير أسلحته وفرس له، وثانيهما هو الإقطاع النقدى أو العينى والذى يعتمد فيه الفارس على سيده الإقطاعى الأعلى الذى يوفر له سبل العيش بنقدِه راتب سنوى يتم الإتفاق عليه، وفى المعتاد كان هذا الراتب من الضألة ما كان يكاد يكفى إحتياجاته اليومية، إذا ما كان الفارس أعزب، أما الفارس المتزوج فكان عليه زياده إعتماده على سيده، وكلاهما يبحث عن مصدر دخل أخر هام وهو غنائم المعارك الحربية والنهب وقطع الطرق،

[16] الإعتبار ص64

وكان يُمنح الفارس اربعة جياد، ومائتى بيزنط ذهبى[17] فى السنة، وخمسين ميكيال من الذرة، وعشرين ميكيال من الشعير وعشرة مكاييل من الفول[18]، وخمسين مكيال من الزيت،

وأدى إختلاف البنية الإقتصادية للشرق الأدنى عنه فى الغرب إلى إختلاف شكل الإقطاعيات، ففى الغرب المعتمد بشكل أساسى على القرية والإقتصاد الأولّى المتمثل فى الزراعة أعتمد الإقطاعى على الأراضى الزراعية فقط التى يمثل مركزها قلعة الكونت، أما فى الشرق المتقدم حضارياً والمرصع بمدن كبيرة تزخر بالصناعات والإنشطة التجارية، مثلت المدينة المركز الرئيس للإدارة الصليبية، الأمر الذى فرض على سيد المدينة توفير أعداد معينة من الفرسان المدرعين والمشاة لخدمة البيت الملكى،

وتم بناء الجيوش الصليبية على طبقة وراثية من المحاربين (الفرسان النبلاء) الذين مثلوا العمود الفقرى للمجتمع الصليبى، وهم محاربون يؤدون خدمات حربية مقابل إقطاع، الأمر الذى فرض على هذه الطبقة للحفاظ على كيانها وإستمرار سيادتها، القيام بمهمة مزدوجة، وهى التوسع والدفاع،

وقد تطلب القضاء على الفارس الصليبى عمليات معقدة بسبب وسائل الحماية التى كانت توفر له ـ مادام على متن جواده ـ حماية كبيرة من أسلحة أعداءه سواء المقذوفة أو أسلحة الضرب، فلهذا كان يجب دفع الفارس للترّجّل وذلك بقتل جواده أولاً، وهو الأمر الذى تنبه له الصليبيون فعملوا على توفير حماية لجيادهم بأسلوبين، أولهما تخصيص نصيب من وسائل الحماية الصناعية لجيادهم بتغطية الأعضاء القاتلة للجواد بأجزاء معدنية وزرد، والأسلوب الثانى بإحاطة الفرسان اثناء الزحف والمراحل الأولية من المعارك بقوات نبّالة مترجّلة، لإبعاد فرسان المسلمين بنبالهم للحدود الأمنة التى لا تستطيع نبال المسلمين إصابة فرسان الفرنجة، حتى اللحظة المناسبة للهجوم الصليبى فيفتح المشاة الفرنج ممرات فى نطاق الأمان الذى وفروه لفرسانهم، فيخرج فرسان الفرنج مهاجمين فرسان المسلمين ،

بينما أعتمدت الإستراتيجية القتالية الصليبية على ثقل التسليح الذى يتيح درجة عالية جداً من الحماية للمقاتل الصليبى، ويهاجم الفرسان الفرنج صفاً واحداً

17 عملة بيزنطية

18 يستخدم الشعير والفول كعلف للجياد

من الحديد الذى لايؤثر فيه ضربات أعداءهم، بينما ضرباتهم مميته فكان يجب حرمان الصليبيين من وسيلة هجومهم بقتل خيول فرسانهم ،

وإن سيطر على الفارس الصليبى الغرور والنرجسية، فلم يكن هناك ما يجبر فارس نبيل متغطرس على إتباع ما يؤُمر به، الأمر الذى يدفعه للتهور القاتل البعيد عن أى نظم عسكرية، ففى المراحل الأولى من القتال يكون الفارس الصليبى عضو بوحدة عسكرية، وبعد الصدام الأول يغيب عن ذهنه هذه الوحدة ويقاتل من أجل الدفاع عن نفسه ومن أجل حب الظهور ،

أما المشاة فقد تكفلت الطبقة الوسطى بتوفيرهم للجيش اللاتينى، فنسبة ضخمة من أفراد الحملة الأولى كانوا من الفلاحين وأقنان الأرض، الذين أرتبطوا بسيدهم الأقطاعى فى الغرب برباط أقرب للعبودية، وما أن تلقوا الدعوة للحرب بالشرق حتى خلعوا قيود العبودية والقنية، وسارعوا بالسفر بدون ترحيب من البابا، ولم يملك سيدهم الإقطاعى القدرة على منعهم، ونظرياً كان ينظر لجميع المشاركين بالحملة على أنهم أحرار، وأدى نجاح الحملة فى تحقيق هدفها إلى خلخلة البنية السكانية لجنوب الشام، بعد تفريغ مناطق كبيرة من سكانها الإصليين، مما فتح مجال لفوز العديد من أقنان الغرب حسب قانون الغزو بإمتلاك أراضى بالشرق، مما حول عبيد الأمس إلى أسياد، الأمر الذى منحهم مهن أكثر راحة وربحية ولمعاناً، وكذلك أتاحت لهم الثروات والأملاك التى أستولوا عليها بقانون الغزو ثراء بعد فقر، الأمر الذى أنشأ الطبقة الوسطى أو البورجوازية، التى تغذى جيوشهم بالجنود المترجلين، وعمل البرجوازيون بجانب الزراعة بكافة المهن التى يحتاجها سكان المدن، فالعديد منهم أمتهن الصناعة والأعمال الخدمية، والتجارة، وكانت الأماكن التى تقدم الأطعمة الجاهزة تعتبر ذات أرباح وإقبال فى مدن العديد من سكانها مهاجرين، كما أمتهنت العديد من الأوربيات مهنة الدعارة التى كانت تدر عليهن أرباح خيالية، كما أنتشرت الخمارات التى كانت تتم فيها أيضا المقامرة بالنرد، التى أقبل عليها القادمين للشرق من أجل التوبة والحج للأماكن المقدسة،

الفرق بين وضع القن فى أوروبا ووضعه بالشرق كفرق السماء عن الأرض، فإخلاء مدن كاملة بالشرق من سكانها الأصليين أتاح لهم فرص تملك عقارات لم يكونوا يحلمون بجزء منها، ولا ريب لم يعد أحد منهم للغرب، وأن كان العدد الذى وصل منهم للشرق نسبة ضئيلة من العدد الذى

خرج من الغرب، بسبب بدائية تسليحهم وتدريبهم، وعدم إهتمام زعمائهم النبلاء بأمرهم، والفقر والعوز الى رافقهم فى رحلتهم،

وأشتق لفظ البرجوازية من أصل عربى وهو كلمة البرج المحصن، فجميع القرى الصليبية والتى تم إنشاءها على أطلال القرى العربية مزوده ببرج دفاعى يستخدم كنقطة مراقبة وملاذ آمن فى حالة الدفاع، ولم ترتبط طبقة

البرجوازية بأى تبعية لسيد إقطاعى أعلى، وأن أتربطت بحاكم المنطقة التى بها أراضيهم بما يفرضه العرف من ضرائب وعشر الإنتاج من المحاصيل والفاكهة، وكذلك الخدمة العسكرية كقوات مشاة وخصوصاً فى حالة تعرض مدنهم وقراهم أو المملكة لخطـر هجوم القوات الإسلامية ،

وأتاح هذا النظام توفير الحماية للمستوطنة الصليبية (القرية) بتوفير القوة البشرية المتمثله فى حائزى الأراضى والحرفيين (البرجوازيين)، يضاف لذلك الأعمال الدفاعية الهندسية (برج القرية)، هذا غير فرسان صاحب المقاطعة، مما وفر خطوط دفاعية عن المملكة، علاوة على توفير قوات مغذية للجيش[19]،

وقد واجهت الصليبيين مشكلتين أساسيتين، الأولى هى الإنقسام بين الكيانات السياسية وأن ادت سيطرة مملكة بيت المقدس على مدينة القدس، وكذلك مساحتها الكبيرة، إلى تمتع ملوكها بقدر من السيطرة على باقى الأمارات الصليبية.

أما المشكلة الثانية التى واجهت الصليبيين فى الشام هى قلة المحاربين الأوروبيين الذين أبدوا إستعدادهم للأستقرار فى الأمارات الوليده، فكما مر علينا لم يستقر بالشرق من كبار الأمراء إلا من فاز بنصيب كبير من الكعكة، أما من لم يستطع إيجاد له موطئ قدم فى إمارة فقد سارع بالعودة لأوروبا مصطحباً معه رجاله، مما ألقى مسئولية حكم القلاع والإقطاعات على الصليبيين الجدد، وهم من طبقة الفرسان الذين كانوا يلتحقـون بخدمة بيت ملكى أو بيت نبيل فى أوروبا، أو ينتمون لطبقة صغار النبلاء، الذين لم تسمح لهم إقطاعاتهم بأوروبا إلا بحياة لا تمتاز عن حياة كبار الفلاحين، مما يعنى أن الشرق جنة الأحلام بالنسبة لهم،

وإن إدى نجاح الأساطيل الإيطالية فى نقل المزيد من الجيوش الصليبية إلى أنعاش الصليبيين بالشرق، ووقى الصليبيين الجدد مخاطر الطريق البرى المار بالأناضول والذى قضى على أكثر من جيش صليبى ،

وإن أستمرت معاناة الصليبيين فى الشرق من ضعف القوى البشـرية والعسكرية، زاد من تفاقم هذه المشكلة إنعدام الثقة والمقت المرير بين

[19] وهو قريب من نظام الكيبوتز والمستوطنات التى يتبعها الكيان الصهيونى فى الوقت الحاضر ،

الصليبيين والمسيحيين الشرقيين الذين أظهر لهم الأحتلال الصليبى مدى الفرق الشاسع بين الحكم الأسلامى الذى تمتعوا فى ظله بحرية أقامة شعائرهم الدينية بدون أدنى تدخل من الحكام المسلمين، حرية فقدوها تحت النير الصليبى الذى لم يحاول إخفاء عداءه للمذاهب الشرقية، وحاول جاهداً القضاء عليها، فى الوقت الذى كان المسلمون قد تركوا للمسيحيين الشرقيين حرية ملكية أراضيهم لقاء دفع ضرائب أقل بكثير من التى أضطروا لدفعها لحكامهم الصليبيين الجدد ،

شكل المسلمون نسبة معتبرة من سكان المناطق التى سيطر عليها الصليبيون، بعد إن رأى الصليبيون ضرورة الحفاظ على هؤلاء السكان الذين مثلوا لهم عصب الحياة الإقتصادية، بعملهم بالزراعة والصناعة التى تدر لهم الأرباح والدخل وتوفر لهم مستلزمات إعاشتهم، فالصليبيون لم يستطيعوا ملئ المدن المحتلة، بل ظلوا أقلية مما أضطرهم إلى الإستعانة بالعناصر المحلية للعمل بالزراعة، وهى مهنة لم يتخيل النبلاء المحاربون المتغطرسون العمل بها يوماً من الأيام، يضاف لهؤلاء الآلاف من الفلاحين وأقنان الأرض الذين صاحبوا زحف الجيش الصليبى فى إتجاه القدس، وهؤلاء أتاح لهم الشرق مرتبة ما كانوا يحلموا ببلوغها فى الغرب، فهم شكلوا طبقة ملاك ومستأجرى الأراضى الزراعية،

وقد شكل النبلاء الفرنج طبقة إرستقراطية مقاتلة عملت على الحفاظ بعدم وجود إتصال مباشر بمن يحكموهم، فالأمارات الصليبية كانت تشتمل على مجموعة من الغزاة الذين يختلفون عن فلاحيهم ثقافياً وإجتماعياً ولغوياً، مما أدى إلى عدم خلق قنوات إتصال بين الفلاحين سكان الأرض الأصليين والحائز على الإقطاع من النبلاء المتغطرسين، الذين أقتصرت علاقاتهم بالعناصر المحلية على علاقة إستعلائية إستغلالية تقوم على النفعية وإستنزاف ناتج مجهودات عمل العناصر المحلية لتأمين أمنهم الغذائى، وجمع أكبر قدر من الأموال للحاكم ورجاله، الأمر الذى أدى إلى حدوث عزلة مطلقة بين الغزاة المستعمرين والسكان المحليين المقهورين ،

شكل الإستعماريون اللاتين مجموعة منغلقة من الغزاة المعتمدين على القوة، من العسير بل من المستحيل على غير الفرنج الإلتحاق بهذه المجموعة، مهما أمتلك من المواهب والأمكانيات، فقد تجسدت الطبقية فى المجتمع الصليبى بشكلاً فج ،

وولدت الكيانات الصليبية عرجاء، فقد أخفق الكيان الصليبى فى إحداث نوع من الإندماج الإجتماعى بين عناصر سكانه ذوى الأصول المختلفة، بسبب تمسك كل أصحاب هذه الأصول المختلفة بعاداتهم وثقافاتهم التى تربوا عليها ويضاف لذلك العنف والتعالى والعنصرية التى سيطرت على الغزاة الصليبيين ،

وأصبح الهاجس الأمنى والأمن العسكرى هو الباعث والموجة لحياة الصليبيين، الأمر الذى أنعكس على تقوقع الصليبيين والتركز فى الإقامة على مناطق محدودة لتقليل خطوط دفاعاتهم، وكذلك قام الصليبيون تحت الهاجس الأمنى ببناء كافة منشأتهم ومدنهم وقراهم بشكل عسكرى صرف[20] توفر لهم الحماية،

وسيطر العنصر الفرنسى على الديمجرافية السكانية للمستوطنين الصليبيين بالشرق، وضربت اللغة والعادات الفرنسية بجذورها فيما وراء البحر، وأن شوهدت مستعمرات إيطالية بالمدن الساحلية، كإمارة جبيل، علاوة على التواجد الإيطالى فى المدن الساحلية بموجب تخصيص أجزاء من هذه المدن بناء على أتفاقيات الغزو، وقد قام أبناء الكوميونات الإيطالية بتأسيس شركات تجارية، لتغذية أوروبا بالمنتجات الشرقية والبهار المتهافت عليه، وتمتعت هذه الكوميونات بإستقلال ذاتى حصلت عليه نظير خدماتها البحرية الحربية التى كانت تفتقر إليها القوات الصليبية للإستيلاء على المدن الساحلية، وقد عملت هذه الكوميونات على إحتكار النشاط التجارى فى الشام وكذلك كافة أعمال الشحن البحرى والأعمال المصرفية،

وإن كان يمكن إعتبار أن العناصر المكونة للمجتمع الصليبى شملت كافة الأمم الأوربية، فقد بلغت مزايا السفر إلى الشرق وإغراءاته مسامع الجميع فى أوروبا، الأمر الذى أوجد مجتمعاً خليطاً وغير متجانس، لم يجمعه تحت شمس الشرق الساطعة، إلا الرغبة فى الثراء،

وشوهد تواجد من بعض المدن البحرية الأخرى مثل مارسيليا وبرشلونة فى المدن الساحلية الرئيسة، وكما كان للتواجد الألمانى نصيب متمثل فى هيئة فرسان التوتون، وعمل أعضاء الطبقة الإرستقراطية العسكرية فى بيت

[20] وهو ما يرى بإسرائيل وليدة الحركة الصهيونية والتى كافة مستوطناتها والمدن المحتلة أنشأت لأغراض عسكرية ،

المقدس المتفاخرون بأنسابهم المزعومة على الحفاظ على نقاء سلالاتهم بالتزاوج فيما بينهم، بينما أنتشر التزاوج من مسيحيات شرقيات فى أمارتى الرها وأنطاكيا، بينما نبلاء المملكة جميعهم من أصول متواضعة، أما البرجوازية الصليبية والتى قدمت ضباط الصف المشاة والجنود للجيوش الصليبية، فقد أنتشر فيما بينهم الزواج من المسيحيات الشرقيات، وإن لم ينقطع سيل الوافدين الجدد الذين ألهب خيالهم أخبار الإستيلاء على القدس، وروايات الجنود العائدين المبالغ فيها عن ما شاهدوه، وأن كان بقاء هؤلاء الحجاج بالشرق مؤقت، وأضطر ملك بيت المقدس دفع عائد مادى كبير للمقاتل من الحجاج ليستفيد من مجهوداته الحربية، وكما شكل أنصاف الشرقيون ممن أطلق عليهم تركبولى، فرسان خفيفى العدة مسلحين بالسهام على غرار فرسان الشرق ،

يضاف لهذه اللوحة الفسيفسائية السكان الأصليين الذى سمح لهم بالتواجد فى الأراضى المحتلة، كانت الأغلبية الساحقة من هؤلاء الشرقيين من المسيحيين سواء يعاقبة ونساطرة وموارنة، المخالفين للاتين فى العقيدة، الذين ساد عدم الثقة بينهم وبين المستوطنين الصليبيين، بقدر قد يكون أكثر مما كان بينهم وبين حكامهم المسلمين، الأمر الذى دفع مطران عكا جاك دى فيترى وصف المسيحيين الشرقيين بقوله "إنهم غشاشون وثعالب خبثاء مثل اليونانيين وكذابون ومنافقون ويعشقون الربح وخونة ويسهل كسبهم بالرشوة ويقول أحدهم الشئ ويقصد عكسه، وكانوا أشبه بالنساء فى المعركة، وكانوا عزل من السلاح، ولا يعتبرون السرقة والنصب أمراً مهولاً، ومن أجل مبلغ ضئيل من المال يصبحون خونة ويطلعون العرب على أسرار المسيحيين، ولا عجب فقد نشأوا بينهم ويستعملون لغتهم"[21]، حتى نجد رواية مصرى صاحب كتاب سير الأباء البطاركة يقول فيها "وصرنا معشر اليعاقبة لانصل للحج إليه ـ بيت المقدس ـ ولا نتمكن من الدنو منه، من أجل ما هو معروف من بغضهم ـ أى الفرنج ـ لنا، وسوء إعتقادهم فينا وتكفيرهم أيانا"[22]

وكذلك تشبث بعض المسلمون بأراضيهم وخصوصاً بحوض نهر العاصى، والمنطقة المحصورة بين بانياس وعكا وسهل البقاع، كما ظل البدو الرحل فى حركتهم الدائمة خلف الكلأ، وتعرض هؤلاء المسلمين لكافة أعمال الإستغلال

[21] رسائل جاك دى فيترى ص229
[22] سير الآباء االبطاركة ص49

من جانب حكام بيت المقدس، مما أوقعهم تحت ضغط شديد من أعباء مالية وضرائبية فى منتهى القسوة، كما عانوا من التفرقة حتى القانونية، فقد تم فرض عقوبة الإعدام إذا ما تكرر ضرب شخص مسلم لصليبى فى الوقت الذى لم يتم فرض أى عقوبة على الصليبى فى حالة تعديه بالضرب على المسلم، وقد أظهر هؤلاء المسلمون دائماً ميلاً إلى الإنعطاف لجانب القوات المسلمة خلال الحروب والإغارات التى تقوم بها، الأمر الذى حدا بوليم الصورى بوصفهم بأنهم "أنضموا كثيراً لكتائب العدو وأرشدوهم إلى كيفية القضاء علينا، لمعرفتهم التامة بكافة التفاصيل عنا، إذ ليس هناك وباء أشد فتكاً من عدو داخل بيتك"[23] وأن أبدى أبن جبير أمتعاضه وأسفه بسبب تمسك بعض المسلمون بالبقاء تحت دولة الفرنج

وقد عانى هؤلاء المسلمين من العنصرية الدينية التى عانى منها حتى مسيحى الشرق، فقد حُرم على المسلمين تشيد المساجد، بل حتى المساجد الموجود قبل الغزو الصليبى تم تحويلها إلى كنائس، كما لم يسمح للمسلمين بممارسة شعائرهم الدينية، كما حرم مسيحى الشرق من ممارسة شعائرهم تبعاً للطقوس الشرقية، ولا يمكن أخذ المعاملة الإستثنائية التى تمتع بها أسامة بن منقذ من قبل فرسان الداوية عندما سمحوا له بالصلاة بالمسجد الأقصى كنموذج لمعاملة المسلمين داخل مملكة بيت المقدس، بل كانت هذه الحالة إمتياز شخصى لأسامة بن منقذ حيث كان يزور مملكة بيت المقدس كسفير لمعين الدين أنر حاكم دمشق والحليف الوحيد والهام للصليبيين من الحكام المسلمين،

ومثلت واردات الضرائب والجمارك التى كانت تفرض على التجار والقوافل الماره بالأراضى التى سيطر عليه الفرنج مصدر دخل أساسى بالنسبة للأقتصاد الصليبى، فأبن جبير يذكر فرض ضرائب على الحجاج المغاربة أثناء عودته من رحلته للحج قبيل معركة حطين، ويبدى إندهاشه لإتقان الفرنج القائمين على تحصيل الجمارك للغة العربية وتدوينهم بها[24]

وكما فرض أعتماد الصليبيين على التجارة وعوائد الجمارك كمصدر أساسى لمصادر دخلهم إلى حسن معاملة التجار المسلمين "برفق وتؤدة دون تعنيف

[23] تاريخ وليم الصورى ج2 ص302
[24] رحلة أبن جبير ص250

أو تحمل"[25] كما أعتاد التجار طلب الحماية من هيئة ديرية، وكانت هذه الحماية بالتأكيد لقاء ثمن مادى، فقد أعتاد التجار المواصلة الذهاب إلى عكا تحت حماية فرسان الداوية، لدرجة مشاهدة أبن جبير بعكا مسجد قديم أبقى عليه محرابه، وأقام الصليبيون فيه محراب لهم، فكانت تقام فيه الصلوات للمسلمين والمسيحين "فالمسلم والكافر يجتمعان فيه، يستقبل هذا مصلاه وهذا مصلاه"[26]

وتأثراً بالحضارة والنظم الإسلامية نقل الصليبيون الكثير من الوظائف الإسلامية للإنتفاع بها داخل المجتمع الصليبى، كوظيفة المحتسب، وهو المسئول عن متابعة الأخلاق العامة والأسواق والصحة والتأكد من إلتزام الباعة بالموازين وإتباع الإجراءات الصحية السليمة فى إعداد وعرض وتداول الأطعمة، فقد إستعار الصليبيون هذه الوظيفة بأسمها العربى بل حرصوا على تعيين مسلم فى هذه الوظيفة الحساسة،

وعمل الصليبيون على معالجة مشكلة قلة السكان اللاتين فى الأراضى التى أستطاعوا السيطرة عليها بالأستعانة بالحجاج الوافدين لزيارة القدس، والذين لم ينقطع سيل تدفقهم على الشرق بعد أن ألهب إحتلال القدس خيال الأوربيين، متأثرين بمنح الغفران للذاهبين للقدس، ففى عام 516هـ/1123م تم عقد مجمع لاتيران الذى نص على منح الذين يذهبون إلى بيت المقدس والذين يقدمون العون والذين يدافعون عن المسيحيين غفران جميع معاصيهم،

كما لعبت الحملات العديدة التى كانت وجهتها الشام وسيل الزوار الذى لم ينقطع دور بارز فى تعويض النقص العددى للجيوش التى يستطيع الصليبيون تقديمها لأرض المعركة، كما كان للجمهوريات الإيطالية، البندقية، جنوا، بيزا، دوراً هاماً جداً فى إكمال السيطرة الصليبية على المدن الساحلية بفضل أساطيلهم، وإن كانت هذه الخدمات ليست مجانية ولا إقتناعاً بالفكرة الصليبية بل نظير ثمن باهظ وهو حصول هذه الجمهوريات على أمتيازات تجارية واسعة فى المدن التى ساهموا فى الأستيلاء عليها، بل تعدى الأمر إلى حصولهم على أحياء خاصة بهم ليمارسوا فيها حياتهم كأنهم فى مدنهم

[25] رحلة أبن جبير ص 349
[26] رحلة أبن جبير ص134

الأصلية، أما الحل السحرى الذى أهتدى إليه الصليبيون لمواجهة ضعف القوى البشرية لهم بالشام فكان الهيئات الدينية المقاتلة،

فرسان الأسبتارية و الداوية (فرسان الهيكل) والتوتون

وجد الصليبيون أنفسهم فى محيط من أعداء أكتسبوهم بوحشيتهم ودمويتهم، أعداء كان كل هدفهم تطهير أراضيهم من الوجود الغربى، وكذلك كان إتساع الأراضى التى سيطروا عليها، وقلة أعداد قواتهم المقاتلة، يمثلان أخطار قاتلة يجب مواجهتها، فبالرغم من الحصانة الطبيعية التى تمتع بها الشام، الذى تكتنفه الصحراء من الجنوب، وجبال طوروس شمالاً، وصحراء سيناء غرباً ونهر الفرات شرقاً، إلا أن وجود قوى إسلامية أمتلكت الإرادة على قتال الصليبيين منعهم من السيطرة الكاملة على الشام، كما فشلت القوات الصليبية فى فرض سيطرة مملكتهم على كافة الوديان الداخلية التى شكلت خطورة كبيرة عليهم، وحتى السيطرة الصليبية على المدن الساحلية، فلم يسيطروا عليه إلا بمساعدات الجمهوريات الإيطالية بثمن باهظ جداً، يضاف إلى ذلك المعارك الدامية التى أدارها المسلمون ضد الصليبيين بعد تنامى القوة الإسلامية عقب الموجة الصليبية الأولى، وقد أصيب الصليبيين خلال هذه العمليات الحربية بخسائر ضخمة، علاوة على أسر أعداد كثيفة منهم، ونجاح المسلمون فى تحرير مساحات واسعة من الأراضى المحتلة من الصليبيين مما حرم السادة الإقطاعيين من الدعامة الأساسية التى بنوا عليها قواتهم المسلحة، وعجزهم عن الوفاء بإلتزاماتهم العسكرية تجاة ملك بيت المقدس سيدهم الإقطاعى الأعلى، وكذلك تفشى الأمراض بينهم والأوبئة وقسوة الطقس الذى لم يعتادوه بأوروبا وبدائية عاداتهم الصحية وإنحلالهم الأخلاقى الذى غرقوا فيه حتى آذانهم الأمر الذى أدى إلى تآكل قواتهم المقاتلة بإستمرار، فكان يجب البحث عن قوات صليبية دائمة كى تحافظ على الوجود الصليبى ومقاومة النشاط العسكرى الإسلامى المتنامى ضدهم ،

بينما نقل الصليبيون نفس النظم الإقطاعية التى تربوا فى كنفها، والتى لم تكن تسمح بإنشاء وتكوين جيوش عاملة، بل كانت الجيوش الصليبية نفس الجيوش الأقطاعية بالغرب الأوروبى، والتى كانت لا تفرض على الفرسان تقديم خدمات عسكرية لسيدهم الإقطاعى الأعلى إلا خلال فترات لا تتجاوز أربعين يوماً فقط، وأن فرضت ظروف العداءات التى أحاطت بوجود الصليبيين والمعارك التى أضطروا لمواجهتها بالشرق إلى عدم الألتزام بشرط المدة

المحدده للخدمة العسكرية الواجب على الفصل تقديمها لسيده الأقطاعى، فقد ألتزم الفصل الصليبى بالخدمة العسكرية لمدة عام من بداية إعلان الحرب،

وأن ظل النظام الأقطاعى للصليبيين عاجز على تقديم جيوش كثيفة العدد قادرة على مواجهة التحديات المفروضة عليهم، حتى الحجاج الصليبيون الذين أستمر تدفقهم للشام وأن مثلوا قوة بشرية ضخمة إلا أنهم لم يلتزموا بالقتال إلا لفترات محدودة لقاء عائد مادى باهظ يغادرون بعدها لأوروبا، فقد أستعان الصليبيون بالمرتزقة والذين كانوا فى الغالب من الحجاج، وأن مثل ذلك عبء مادى ضخم عجزوا عن القيام به، خصوصاً بعد ضياع مساحات واسعة من الأراضى الزراعية الخصيبة على يد عماد الدين زنكى، وأبنه نور الدين محمود، الأمر الذى فرض الإعتماد على الهبات الخاصة التى كانت ترد على المملكة من ملوك ونبلاء أوروبا، لهذا كان يجب على الصليبيين البحث على وسيلة يستطيعوا من خلالها إيجاد شكل من الجيوش العاملة المتواجدة تحت السلاح طوال الوقت لمواجهة أى ظروف طارئة،

وجد الصليبيون الحل العملى فى الجماعات الرهبانية المقاتلة التى أستأثر النبلاء السيطرة عليها فى طبقية دينية، فمن المستبعد إكتفاء سلالة طبقة المحاربين الوراثية المتكبرة بالعمل الديرى الخيرى الذى ينتزع منهم أسباب الحياة الراقية التى نشأوا عليها، فكان من الطبيعى تحوير نشاط الهيئات الديرية التى أنتموا لها للعمل العسكرى الصرف، والمتمثل فى الأسبتارية والداوية والتوتون الذين اقسموا على قتال المسلمين بغض النظر عن المكان والزمان، والمصابرة على الحرب وإن طالت أمدها، بعد أن أتخذ الصليبيون خلال المرحلة الثانية من دولتهم سياسة دفاعية بحتة أزاء النشاط العسكرى الإسلامى المتنامى،

ولا ريب إن إقبال الرهبان على حمل السلاح والقتال مثل تغييراً جذريا فى التقليد الكنسى، ففى القرن الرابع الميلادى قال القديس مارتن "أنا جندى المسيح ولذلك لا يجب أن أقاتل" فالتقليد المسيحى يجرم حمل السلاح ناهيك عن القتال، فإراقة الدماء معصية يجب عدم إرتكابها، ولكن ما أن حل القرن الحادى عشر حتى أنتهى تقريباً الحظر على رجال الدين بحمل السلاح، حتى

نجد أن وليم الصورى وهو رجل دين بارز ورئيس أساقفة صور يصف رالف بطرك أنطاكيا عام 1136م "وكان رالف محارباً عظيم القدر"[27]

كانت بدايات هذه الجماعات على يد الأسبتارية والتى بدأت على أيدى بعض تجار مدينة أمالفى الإيطالية[28] فى عام 1070م أى قبل بداية الحملة الصليبية الأولى كجمعية خيرية قامت بإنشاء مستشفى القديس جون لعلاج فقراء الحجاج الأوروبيين الوافدين على القدس، بعد سماح الحاكم المصرى للقدس لهم، وتم تكريس المشفى للقديس يوحنا المتصدق بطريرك الأسكندرية فى القرن السابع الميلادى فى بداية الأمر، ليتم تغيير راعى الهيئة بعد ذلك إلى يوحنا المعمدان الأكثر شهرة، فلهذا أطلق عليهم Hospital والتى تعنى المشفى باللاتينية وحورت إلى الأسبتارية ،

وظلت الأسبتارية مكتفيه بعملها الخيرى حتى ظهور الداوية (فرسان الهيكل) التى تأسست فى 1118م خلال تولى الحاكم الثالث لبيت المقدس بلدوين دى بورج، كمنظمة عسكرية منذ البداية على يد فارس فرنسى يدعى هيو دى بانيز، الذى وصل من أقليم شامبانيا بفرنسا يصحبه زميله جفرى دى سانت أومير، وتسعة فرسان فرنسيين أخريين، عندما ظهرت مشاكل أمنية خطيرة تهدد الوجود الصليبى بالقدس، بسبب الأغارات الأسلامية على قوافل الصليبيين الوافدة على بيت المقدس، وقامت بهذه الإغارات الحامية المصرية بعسقلان، وكذلك الهجمات التى كانت وجهتها بعض القرى الصليبية الصغيرة التى خلفت الكثير من الصليبيين قتلى، وهذا ما دفع بلدوين الثانى إلى تشجيع هؤلاء الفرسان المتحمسين لإنشاء هذه الهيئة، ومنحهم بطريرك بيت المقدس جاريموند (522-512هـ/1118-1128م) تصريحاً عام 1118م بإنشاء منظمة حربية مهمتها محاربة المسلمين، وتأمين طريق الحجاج وحماية معبد سليمان بالقدس لمدة تسعة سنوات[29] وفى عام 1128م قام البابا هونوريوس وبطريريك بيت المقدس استيفن بتخصيص زى أبيض لهم، وذلك فى مجمع عقد فى مدينة تروى بفرنسا، ومنحهم البابا يوجينيوس الثالث (1145-1152م) الحق فى حياكة صلبان حمراء على أرديتهم،

[27] وليم الصورى ج3 ص104
[28] مدينة إيطالية تقع فى كامبانيا بأقليم سالرنو
[29] رسائل جاك دى فيترى ص209

ولأدراك بلدوين الثانى أهمية المنظمة المحاربة الجديدة منحها جزء من قصره الواقع بباحات المسجد الأقصى الشريف والذى أطلق عليه الصليبيون هيكل سليمان لأقامة أعضاءها ،

وقد أتخذ هيو هذا الجزء من هيكل سليمان ليكون مقراً لجمعيته الوليده ولهذا أطلق عليهم فرسان المعبد أو الهيكليون Temblars، وتنهمر الهبات على الجماعة بسخاء حتى تمتلك عدد ضخم من المدن والقلاع ليس فقط بالشام بل وفى ربوع أوروبا، سواء فى بروفانس وبواتو (فرنسا) وإنجلترا، وأرغونة وقطلونيا وقشتالة (أسبانيا) والبرتغال، وتوسكانيا ولمبارديا وصقلية (إيطاليا) والمجر وألمانيا، ذلك بسبب هطول الهبات والتبرعات على رأس الجماعة مما مكن فرسان الهيكل من التمتع بثراء فاحش ومباركة الباباوات المتعاقبين والذين نظروا لفرسان الهيكل على أنهم ليسوا حماة الوجود الصليبى بالشام فقط، بل كجنود جاهزين لفرض إرادة البابا على معارضيه، بل أكثر من ذلك قيام البابا أنوسينت بجعل التبعية المباشرة لفرسان الهيكل للبابا بروما، ورفع أى سيطرة على قلاع وحصون فرسان الهيكل إلا سيطرة الفرسان فقط، ولم يتم أعفاء الفرسان من دفع العشور للكنيسة فقط بل مُنحوا حق جمع العشور لمصلحة المنظمة، كل هذا جعل من منظمة فرسان الهيكل دولة داخل الدولة وكنيسة داخل الكنيسة، وتم فرض ضريبة يدفعها جميع رجال الدين حتى الأساقفة بل ويدفعها البابا ذاته لصالح الهيئات الديرية المقاتلة، بل وسُمح لهم بالإحتفاظ بالغنائم التى يحصلون عليها، مما اضفى هالة من القداسة والثراء على فرسان الهيكل فسارع العديد من النبلاء للتطوع ضمن صفوفها .

وكان على رأس فرسان الهيكل رئيس يطلق عليه مُقدم الفرسان (المُعلم) يليه البرسبتور أو ناظر الإقطاعية وهو ينوب عن المُعلم حال غيابه ويتمتع بنفس صلاحياته، ثم مدير الخزينة وهو المسئول عن أموال الهيئة، ثم المارشال أو كندسطبل ويعتبر القائد العام لقوات المنظمة ومن مهامه تخصيص الأسلحة والخيول للفرسان ووضع الخطط والأستراتيجيات العسكرية ويقود الفرسان فى ميدان المعركة، وتم تخصيص قائد لكل مدينة للفرسان فيها وجود، فكان هناك قادة للقدس وطرابلس وأنطاكيا، ومقدمين بالممالك الأوروبية، فكان هناك مقدم لأنجلترا وفرنسا والمجر وأراجون (أسبانيا) والبرتغال، وتم تكليف قائد القدس بالرعاية الصحية للفرسان وتأمين الحجاج خلال طريق الحج داخل الأراضى المسيطر الصليبيين عليها، ويتولى حماية صليب الصلبوت

المعتقد إنها القطعة المتبقية من الصليب الحقيقى خلال المعارك، وكما تم تخصيص مسئول عن ملابس الفرسان وخيامهم يسمى الخازن، كل هؤلاء المسئولون كان يخصص لكلاً منهم أربعة خيول وثلاثة خيام له ولحاشيته وتعيين حراس شخصيين لهم، وتم تعيين قسطلان (قائد) لكل حصن وقلعة تابعه للمنظمة .

أما العنصر الأساسى فى التنظيم وهو الفارس، وفى الغالب يكون فرنسياً يجرى فى عروقة دماء النبلاء، فكان يتم إختياره من بين طبقة النبلاء ويتميز بدرع الزرد الحديدى يعلوه جلباب أبيض قصير موسوم بصليب أحمر، وخوذة حمراء، ولحيته الطويلة وشعره القصير، ويخصص لكل فارس ثلاثة خيول، وينص قانون الداوية على أن يتناول كل فارسان طعامهما معا من صحن واحد، ويحرم على الفرسان الصيد بالصقور ولعب النرد، بل كان الفارس نادراً ما يستحم[30]، ولم يكن الفرسان هم كل القوة العسكرية للداوية بل كان هناك طبقة أقل منهم يطلق عليهم أسم الرقباء، يخصص لكل فرد منهم حصان واحد فقط، ويتميزون بزيهم الأسود الموسوم بصليب أحمر، ويتم تجنيدهم من الطبقة البرجوازية[31]، ومهامهم تتراوح بين الخدمات اليومية بالمنظمة كالطبخ علاوة على القتال، ويصل الرقباء إلى تسعة أمثال الفرسان فى التنظيم، وخصصت للرقباء بعض الوظائف الهامة كقائد ميناء عكا فكان يعين من بين الرقباء وكما كانوا يعينون كحرس شخصى لقادة الفرسان وكان يعين من بينهم حامل الراية الخاصة بهيئة الداوية، التى تتكون من نصف أبيض والأخر اسود، مكتوب عليها باللاتينية ما ترجمته "رب لا تعطينا نحن النصر بل أعطيه لمجدك" كما ثبت على الراية صليب أحمر ذو ثمانية زوايا مطرز باللون الذهبى، ويجب على الأعضاء الجدد القسم بالتمسك بثلاثة مبادئ مدى الحياة، وهى الفقر والعفة والطاعة، وتوفير الحماية والمساعدة للحجاج الأوربيين خلال الطريق الرابط بين ميناء يافا ومدينة بيت المقدس،

وقد وضع الأسقف برنارد اسقف كليرفو بفرنسا كتاباً عنوانه الفروسية الجديدة للدعاية لهيئة فرسان الداوية، وإظهار شجاعتهم وخشونتهم وإيمانهم وزهدهم، وسن به القوانين المنظمة للهيئة، التى وافق عليها البابا هونوريوس عام 1139م بمجمع تروى الدينى، وأصدر إعترافاً رسمياً بالهيئة المقاتلة ،

30 عالم الصليبيين ص145

31 طبقة وسطى من أصحاب الحرف والصناع

وأستمر نمو هيئة الداوية ولعبت أملاك الداوية المنتشرة فى أوروبا والثروات المتراكمة فى خزائنهم، إلى إضطلاع الهيئة بالقيام بنشاطات مالية سواء بالإقراض بالفوائد التى تفوح منها رائحة الربا الفاحش، أو تحويل الأموال بين الشرق اللاتينى وأوروبا، أو بين أقاليم أوروبا نفسها حتى أصبحت الداوية بنك أوروبا، ليجلب لها ثراءها دمارها، وكان تضخم قوة الداوية بشكل مستمر، وكذلك الأمن الذى خيم على المملكة وطرقها، ما أدى إلى تغيير هدف الداوية الأساسى من تأمين طريق يافا ـ بيت المقدس، إلى تأمين حدود المملكة وتشكيل قوات النخبة الصليبية ،

وقد شجعت النجاحات التى صادفت الداوية، هيئة الأسبتارية على إقتفاء أثرها للتحول إلى هيئة عسكرية، بعد أن رفض أعضاءها الجدد الإكتفاء بحياة الرهبنة فقط، وتطلعهم لحياة الفروسية والحرب الأكثر صخباً التى تتواءم مع نشأتهم الإقطاعية، ليقوم مقدم الأسبتارية ريموند أوف لوبوى الفرنسى بتغيير نشاط الهيئة من الإهتمام بالمرضى إلى مؤسسة من الفرسان الملتزمين بعهود لقتال المسلمين، ويستولى على كنيسة بيزنطية بالقدس لتكون مقر الهيئة الخيرية الجديد، وتلاقى الإسبتارية نفس نجاحات فرسان الهيكل وبلغت أملاك الأسبتارية عام 1142م ما يضاهى أمارة كبيرة من بينها مدن كبرى كأرسوف، حتى أصبحت الأسبتارية من كبار السادة الإقطاعيين التابعين للملك مباشرةٌ، وبينما سيطر الفرنسيون على هيئة الداوية، كان أغلب أعضاء هيئة الإسبتارية من الفرسان الإنجليز والإيطاليين، حتى أصبح مما تفتخر به العائلات النبيلة بأوروبا إشتراك أحد أبناءها بإحدى هاتين الهيئتين ،

ويرتدى فرسان الإسبتارية زى خاص عبارة عن رداء أسود طويل يثبت به صليب أبيض ذو ثمانية زوايا، على أن يرتدى زى أحمر فوق ملابسه الكهنوتية أثناء القتال، وأُتخذت الهيئة يوحنا المعمدان راعياً لها، وصدر مرسوم رسمى بهيئة الإسبتارية من البابا بسكال الثانى فى 15 فبراير 1119م، مع وضع الهيئة تحت الرعاية المباشرة للباباوية بروما، مع إعتراف الباباوية لما للهيئة من أملاك بالغرب الأوروبى وبالشرق وإضافة أملاك وأمتيازات جديدة لها، ووضع نظام إنتخاب مقدم الهيئة من بين أثنى عشر مرشحاً من الفرسان كعدد حوارى عيسى عليه السلام، ويشترط فى المقدم أن يكون فارساً نبيلاً وأبناً شرعياً لفارس ،

كما أقتحمت الإسبتارية النشاط البحرى الخدمى والتجارى بنقل الحجاج الأوروبيين والبضائع بين الشام وأوروبا، الأمر الذى خلق تنافس وخصومة بينها وبين الجمهوريات الإيطالية ،

أصبحت هذه الهيئات لا تعترف بسلطة ملك بيت المقدس وأمراء طرابلس وأنطاكيا والرها، حتى لم تخضع لسلطة الكنيسة الكاثوليكية بالشرق، ولا تعترف إلا بسلطة البابا بروما، الذى لم يبخل بمنح الإمتيازات للهيئة، الأمر الذى أتاح لها أتخاذ مواقف مغايرة لسياسة الملك وكونتات وبارونات الصليبيين، مما خلق كراهية متبادلة بين رجال الدين بالشرق اللاتينى وفرسان الهيئات الديرية، وأصبحت منظمتى فرسان الهيكل والإسبتارية أشبه بمراكز تجنيد بأوروبا لتغذية جيوش الصليبيين فى الشام بما يعنى منحهم جيوش عاملة محترفة تحت السلاح طوال الوقت لمواجهة أى خطر يهددهم، تتخذ سياسة هجومية عدائية تجاه المسلمين، يشكل التدريب العسكرى جزءاً أساسياً من برنامجهم اليومى ،

وتم وضع سياسة عقابية للرهبان[32]، تعتمد على العقوبات الجسدية والسالبة للحرية والمعنوية، يبدء سلم العقوبات بنفى الفارس المذنب لبضعة أيام، أو سويعات، بعد نزع شارة الصليب وتمزيق ملابسه، وقد يكون النفى دائم، وقد يتم تقييد الفارس المذنب بالسلاسل داخل السجن بالدير، أو يتم جلده، وقد يحرم من الطعام، أو يجبر الفارس المذنب على تناول فتات الطعام المتساقط من الرهبان[33]، وهو جالس أرضاً تحت أقدامهم ولا يسمح له بطرد الكلاب إذا ما أكلت معه زيادة فى إذلاله ،

وأعتبرت الداوية والإسبتارية بمثابة جيشان متجددان بإستمرار، ومرتبطان بقسم دينى لحماية الأراضى المقدسة وقتال المسلمين فى أى مكان، أياً كانت ظروف القتال، وأن كانا يشتركان فى القتال كحلفاء متطوعين وليس كتابعين، وكما كانا على أتم استعداد للتضحية بمبادئهما من أجل مصالحهم المالية، وانتشرت مراكز بأوروبا لتغذية الهيئتين بالمحاربين بإستمرار، ولعب ثراء الهيئتان الدور الأبرز فى تدفق الفرسان للألتحاق بهما، كما سيطرت حالة من العداء بين الهيئات الديرية المقاتلة، حتى كثيراً ما شوهدوا يتقاتلوا،

---

32 يتم محاكمة المنتسبين إلى الهيئات الديرية المقاتلة أمام المحكمة الأكليرية المختصة فى النظر فى شئون الديانة الكاثوليكية والهرطقة والفصل فى القضايا التى يكون رجال الدين طرفاً بها،

33 رسائل جاك فيترى ص209

ولتوسيع قاعدة الإشتراك بالهيئتين، إستجدت الهيئتان عضوية شرفية لمن يريد من نبلاء أوروبا العلمانيين الإشتراك لفترة محدودة بالداوية أو الإسبتارية، كما كان الإشتراك بأحدى الهيئتين باب للخروج من قرار الحرمان الكنسى، كما لم يُلتزم حرفيا بشرط إقتصار العضوية على الفرسان المنحدرين من عائلات نبيلة فقط ،

ولبيان أهمية قوات الداوية والإسبتارية، يكفى أن نعرف أن الأمارات الصليبية الكبيرة كانت ملـزمة خلال المعارك الحربية بتقديم خمسمائة فارس عن كل إمارة إلا إمارة طرابلس فقط كانت تقدم مائتى فارس فقط، أما الأمارات الصغيرة الفرعية فقط كان على كلاً منها تقديم مائة وثلاثة وثمانين فارساً، أما المدن الإقطاعية المستقلة فكانت تقدم متجمعة ستمائة وستة وستين فارساً، أما هيئتى الداوية والإسبتارية فكانت تستطيع تقديم ما يزيد عن الألفى فارس، بما يعنى تفوق الداوية والإسبتارية على التنظيمات العلمانية، يضاف لذلك التفوق، الطاعة والنظام النسبى المتمتع بهما فرسان الداوية والإسبتارية بعكس الفارس العلمانى الذى لا يمكن كبح جماحه ،

وخلال القرن الثانى عشر أصبح الداوية والإسبتارية مسئولان عن عـدد متزايد من القلاع، سواء أمُنحت هذه القلاع للهيئين، أم قامتا بشراءهما أو بناءهما،

كما نص قانون الهيئتان على عدم دفع فدية لأحد أعضاءهما حال سقوطه فى الأسر، وخوض القتال بدون مقابل مادى مهما كانت ظروف القتال ونسبة القوات المتحاربة ،

وإنتهت الهيئتان نهاية مأسوية، فبعد هزيمة الصليبيين بحطين حطت الهيئتان رحالهما بمدينة عكا، ليطردا منها عقب قيام السلطان الأشرف خليل بن قلاون بتحرير عكا عام 1291م، لتجد الإسبتارية مأوى فى قبرص منذ 1291م، ثم فى جزيرة رودس 1310م، ومنها لجزيرة مالطا 1530م، الأمر الذى نمّا قدرات الهيئة البحرية، وتتمسلك الإسبتارية بطابعها العسكرى الموجه ضد المسلمين، لتهاجم طرابلس الغـرب بليبيا 1531م، قبل أن تطرد منها 1551م، لتعود الهيئة لمالطا حتى تسقط نهائياً على يد نابليون بونابرت 1798م أثناء إبحاره إلى الأسكندرية خلال الحملة الفرنسية، وأن ظلت هناك بعض الطوائف المنتمية للهيئة حتى الأن ببعض الدول الأوربية ،

أما الداوية فبعد سقوط عكا على يد السلطان الأشرف خليل بن قلاون أنتقلت الهيئة لقبرص ومنها لفرنسا، وتتخلى عن طابعها العسكرى وتهتم بالمناحى الإقتصادية من نشاطات بنكية ومصرفية ونشاطات تجارية، الأمر الذى خوّل الهيئة ثروات طائلة كانت وبال عليها حتى تحولت الهيئة إلى فريسة يتلمظ لثرواتها أشداق ملوك أوروبا، حتى هاجمها لويس الرابع (الجميل) الطامع فى ثرواتها، فأفنى أفرادها وقام بالقبض على قيادات الهيئة ويحاكموا محاكمات كنسية، تقضى بهرطقة طقوس الهيئة وإتهامها بالكفر ليتم إعدام ستين من قيادات الهيئة وعلى رأسهم مقدمها جاك دى مولان حرقاً ،

وامام النفوذ الفرنسى المسيطر على التواجد الصليبى بالشرق، وهيمنة اللغة الفرنسية على الحياة الإجتماعية، ظهر فرسان التوتون كأداة فولاذية للمقاومة الألمانية للنفوذ الفرنسى، فقد تم أنشاء هذه الهيئة بشكل رسمى أثناء حصار الصليبيين لعكا 1190م عقب معركة حطين، عندما قام بعض الفرسان الألمان من مدينتى "برمن" و"لوبك" من بقايا قوات الأمبراطور الألمانى فريدريك باربا روسا، المشتركين فى الحصار بإقامة مشفى لرعاية الجرحى والمرضى الألمان بسبب الصعوبات التى يواجهونها بالمستشفيات الفرنسية لعائق اللغة، وبسبب العلاقات غير الودية بين الألمان وهيئة الإسبتارية، وكمحاولة ألمانية لتأكيد إستقلالهم الذاتى ومقاومة الهيمنة الفرنسية، وسرعان ما أعترف البابا كلستين الثالث بالهيئة الألمانية الجديدة، وأتخذت قانون الداوية قانوناً لها، وأتبعت التنظيمات العلاجية الخاصة بالإسبتارية بالمشفى الخاص بها، وأتخذت زى أبيض مثبت به صليب أسود زياً خاصاً لها[34]، وتمتعت بنفس الأمتيازات والإعفاءات التى تمتع بها هيئتى الداوية والإسبتارية، وكانت نواتها أربعون فارساً من النبلاء الألمان الغير متزوجين أختاروا هنرى دى فالبوت مقدماً لهم، وغرقت هيئة التوتون فى الثراء حتى أمتلكت حول قلعة مونتفرات فقط خمسة عشرة قرية ،

وينتهى الحال بالهيئة الألمانية بنقل نشاطها لوسط أوروبا تقاتل القبائل الوثنية ببروسيا (النمسا) ثم تعتنق الجماعة المذهب البروتستانتى، وللهيئة تواجد بالنمسا فى الوقت الحالى كطائفة فخرية ،

[34] رسائل جاك دى فيترى ص216

ولأهمية هذه الهيئات الديرية المقاتلة حرص ملوك بيت المقدس على تشجيع إنشاء مثل هذه الجماعات وأغدقوا عليها الأمتيازات والمنح، فأنتشر محاكين من هيئات أخرى، وأن لم تكن بنفس أهمية الداوية والإسبتارية والتوتون، فقد شجع جودفرى دى بويون حاكم بيت المقدس بعض الرهبان لتأسيس هيئة "كنيسة القيامة" ومهمتها حراسة كنيسة بيت المقدس، كما قام راهب إنجليزى بتأسيس هيئة "القديس توماس" التى أقتصرت عضويتها على الفرسان الإنجليز، وكما تم أنشاء هيئة فرسان "القديس لازاريوس" وأتخذت صليب أخضر ثمانى الأطراف شعاراً لها، التى أنشأت أولا من خلال مشفى لعلاج الجذام وقد كان مقدم الهيئة وأعضاءها من المصابين بهذا الداء، الأمر الذى يمثل خطر مزدوج على المسلمين، سواء بسبب الأعمال القتالية أو بسبب العدوى، علاوة على هيئات "الثالوث المقدس"، و"هيئة السيف"، و"هيئة الروح القدس"، كما أسست مدينة جنوة هيئة "القديس لورانس"، وأسست أسبانيا "هيئة القديس جيمس"، وكما كانت هناك "هيئة القديس جورج" فقد وقع فى الأسر "رينو" الملقب بالأسقف وكان محارباً شجاعاً بارزاً لبراعته الحربية، وكان رئيس جماعة فرسان القديس جورج بعد أن سقط فى كمين للقوات المصرية بعسقلان"[35]

وإن أتسمت العلاقة بين الملك والهيئات الديرية العسكرية بشئ كبير من الغموض فلم يوجد أى روابط رسمية بينهما، كما أمتلك الداوية والإسبتارية صوت مسموع بمجلس الحرب بسبب قوتهما العسكرية والإقتصادية ،

هذا ولم تكن فكرة إنشاء هيئات ديرية مقاتلة وليدة الحرب بالشام، فقد ظهرت عدة هيئات بالأندلس خلال الحروب التى شنتها مملكتى قشتالة وأراجون ضد مسلمى الأندلس، مثل هيئة فرسان "قلعة رباح"، وفرسان "كلاترافا"، كما ظهرت بالغرب الأوروبى بعض الهيئات التى قاتلت الشعوب السلافية على ساحل البحر البلطيقى ،

وقد مثلت قوات الهيئات الديرية المقاتلة نواة الجيوش النظامية بالعسكرية الأوروبية التى كانت تعتمد على الجيوش الإقطاعية المؤقتة حتى ذلك التاريخ، ،

[35] وليم الصورى ج3 ص140

كما تم تجنيد قوات من الشرقيين المنحدرين من أب شرقى قد يكون تركى وأم لاتينية وقد تكون بيزنطية أوالعكس وسميت هذه القوات بالتركبولى وهم رماة الفرنج[36]، وعملت هذه القوات كفرسان خفيفى العدة مسلحة بالقوس والسهم كالفرسان المسلمين، وخصصت للمهام التى تحتاج لخفة الحركة والقدرة العالية على المناورة ،

ولعب ضعف الأمراء الصليبيين بسبب قلة قدراتهم المالية، التى كانت الأغارات والحروب الإسلامية السبب الرئيس فى إنهيار النشاط الزراعى الصليبي مما أدى إلى أرتباك إقتصادى للكيان الصليبى بالشام، أمام النفقات الباهظة للدفاع عن القلاع الصليبية خصوصاً بنقاط التماس مع الأمارات الإسلامية، كل هذا أدى إلى قيام النبلاء الصليبيون إلى بيع قلاعهم وأراضيهم الزراعية، التى وجدت فى ثروات الهيئات الديرية طريقاً لسيطرتها على هذه الإراضى، حتى أصبحت الداوية والإسبتارية بمرور الوقت بمثابة أكبر أقطاعى بالشام، تستطيع تسير جيوش ضخمة والدفاع عن قلاعها المنتشرة بكافة أمارات الصليبيين بالشام، حتى أضطر الأمير ريموند كونت طرابلس 1124م إلى أضافة القلاع الحدودية إلى عهدة الداوية والإسبتارية لقيامهم بالدفاع عن هذه القلاع، وهى السياسة التى أتبعها كافة أمراء وملوك الصليبيين بالشام، الأمر الذى أدى إلى زيادة قوة هذه الهيئات، فقد سبق أن قام ريموند كونت طرابلس بمنح الإسبتارية حصن الأكراد الحدودى، كما قام ملك بيت المقدس بمنح الإسبتارية قلعة بانياس 1157م، وقامت الإسبتارية بشراء حصن المرقب عام 1186م علاوة على بعض القلاع الهامة الأخرى ،

وتنشأ هوة سحيقة بين المثل العليا التى بنيت عليها الداوية والإسبتارية كهيئتان دينيتان كانتا تناديان بأنهما سيعملان من أجل المسيح فى إخلاص، وسيتبعان الفقر منهاجاً وسيكونا جنود المسيح، وبين الواقع الفعلى بكونهما من أكبر الإقطاعيين وملاك الأراضى بمملكة بيت المقدس والإمارات الصليبية الأخرى وأكبر مرابين بأوروبا ،

ومن المحتمل إشتراك بعض القبائل المحلية ضمن صفوف الصليبيين كقوات مساعدة أو خدمية، ففى معركة جرت بين نور الدين محمود والصليبيين بالقرب من مدينة بانياس، عندما دفع الصليبيون سرية قوية لتقوية حامية

[36] الإعتبار ص51

بانياس، قام شقيق نور الدين محمود، الأمير نصرة الدين أمير أميران بنصب كمين لهذه السرية والقضاء عليها تماما، "ومحقت السيوف عامة رجالتهم من الفرنج ومسلمى جبل عاملة المضافين إليهم"[37]

قلاع وحصون

وقد أجبرت قلة القوات المتاحة للصليبيين وكذلك إتساع الأراضى المسيطرين عليها وتنامى القوة العسكرية الإسلامية وسيطرة روح الجهاد لتحرير الشام، إلى إتباع الصليبيين إستراتيجية عسكرية تقوم على تجنب الإشتباك فى أى معارك مفتوحة إلا فى أضيق الحدود، وتشكيل الجيش الصليبى كقوات ذات مرونة عالية تسمح لهم بسرعة وسهولة المناورة ونقل القوات بين جنبات الأراضى المحتلة، والأعتماد على إستراتيجية دفاعية تعتمد على أعمال هندسية تتمثل فى القلاع القوية المسيطرة على نقاط حدودية حاكمة والطرق الرئيسة، وزاد شعور الأقلية الذى سيطر على الصليبيين، من تقوقعهم داخل حصون توفر لهم الشعور بالأمن، خصوصاً بعد فشل المؤسسة الحاكمة الصليبية فى إكتساب حب المحكومين وتكوين حاضنة شعبية لها، حتى أصبحت هذه القلاع كطوق حجرى يحمى وجودهم، ومراكز يدار منها الحكم، للتغلب على القصور فى القوى البشرية المؤهلة للخدمة العسكرية، وكذلك لطول خطوط التماس بين الأمارات الصليبية والمسلمين، ومثلت هذه القلاع مراكز محصنة لتأمين الحدود وثكنات للقوات المقاتلة، والإحتفاظ بالغنائم والأسرى، ومراكز إمداد وتموين لقواتهم، ومحطات عسكرية متقدمة، وملاجئ للسكان، والأهم تحصيل الضرائب على الأراضى الزراعية الخاصة بالسكان سواء المسلمين أو المسيحيين الشرقيين، فبلدوين الثانى أنشأ قلعة بالقرب من بيروت حيث "كان الفلاحون الشرقيون يرفضون دفع ضرائب أراضيهم ولكنهم أجبروا بعدئذ على ذلك"[38]، وعقب نجاح نور الدين محمود فى ضم مصر لدولته على يد صلاح الدين "أضطر آمورى إلى بناء بعض الحصون والقلاع القوية على الحدود، لتفصل بينهم بين أعداءهم، ولتكون إيضاً بمثابة خطوط دفاعية قوية[39]"

37 الروضتين ج1ص311
38 تاريخ الحملة إلى القدس ص226
39 رسائل جاك دى فيترى ص187

وقد ربط الصليبيون بين قلاعهم بشبكة إتصالات بالحمام الزاجل أتخذوها من المسلمين، أو بالنيران والإشارات الضوئية أتخذوها من البيزنطيين، علاوة على التحالف مع بعض الحكام العرب ومهادنتهم حتى الفرصة المناسبة للقفز عليهم، ليس هذا فحسب بل عاش الصليبيون فى مجتمعات مغلقة محصنة، فجميع المدن والقرى الصليبية مهما صغر حجمها كانت عبارة عن قلاع وأبراج محصنة، حتى المنشأت الدينية من كنائس وأديرة تم بناءها بالشكل الذى يوفر الحماية لقاطنيها،[40]

وقد عمد الصليبيون إلى الإكثار من إنشاء المستوطنات التى توفر مناطق جذب للمهاجرين اللاتين بمنح تسهيلات ومميزات للقادمين من الغرب، مما يحقق بعض التوازن مع السكان الأصليين لفلسطين بتغيير التركيبة السكانية للأرض المحتلة، وكما سيوفر هؤلاء المستوطنون جانب مهم من إحتياجات الصليبيين من المنتجات الزراعية[41]، فالحركة الصليبية ـ وكذلك خليفتها إسرائيل ـ حركة إستيطان وإستعمار قائمة على إستغلال أراضى الغير وفرض الأمر الواقع بالقوة المسلحة، وقد إنتشرت هذه المستوطنات فى طول الأراضى التى سيطر عليها الفرنج وعرضها، نجد منها الكثير حول مدينة القدس وفى الضفة الغربية لنهر الأردن، مثل مستوطنة كفر مالك، والقبيبة، وبيت جبروين، وغزة، والداروم، والبيرة، وأمتد وجود المستوطنات لمدينة عكا التى تم تشيد مستوطنة كاستيل إمبرت بجهتها الشمالية، وإن نقل الصليبيون أسماء غربية لهذه المستوطنات المشيده على أنقاض قرى عربية[42]، فمثلاً مستوطنة البيرة تم إطلاق أسم لاتينى عليها وهو "ماجنا ماهومريا" والتى كانت تابعة لكنيسة بيت المقدس وملكية خاصة لها، بينما حملت القبيبة أسم "ماهومريا بارفا"، وأدرعات أصبحت "برنارد دى تامب"

والمستوطنة بشكل عام كانت تتكون من الأراضى الزراعية وفى مركزها بيوت قاطنى المستوطنة والكنيسة والمركز الإدارى، يضاف لذلك بعض المنشأت الخدمية مثل الطاحونة والمخبز، ومن الجدير بالذكر أنه كان يمنع بناء طاحون أو مخبز إلا لسيد المستوطنة، مما كان يدر عائد مجزى له، ويحيط بهذه المبانى سور دفاعى وفى أحد زواياه قلعة أو برج ،

40 كما فى حالة إسرائيل الأن
41 كما فى حالة إسرائيل الأن
42 كما فى حالة إسرائيل الأن

ويُمنح المستوطن الصليبى قطعة أرض زراعية مقابل إيجار نقدى وكذلك تقديم عشر أنتاجه من الفاكهة والمنتجات الزراعية الأخرى إلى مالك المدينة أو القرية، سواء الملك أو الكونت أو الكنيسة أو الهيئة الديرية، وكذلك على المستوطن دفع نسبة من الغنائم التى قد يستولى عليها، ويفرض على المستوطن طحن حبوبه بطاحونة سيد المستوطنة، وخبز خبزه بفرن السيد أيضاً

وقد قام سيد المستوطنة بزراعة أراضيه عن طريق سكان المنطقة الأصليين بعد أن حولهم إلى أقنان أرض فى أراضيهم وأراضى أجدادهم، بعد أن أرهقهم بعدة ضرائب وإلتزامات مالية مجحفة، فقد كان على المسلم أن يسدد ضريبة أساسية تقدر بثلث إنتاجه الزراعى بشكل عينى، سواء من الحنطة أو الكروم، أما أشجار الفاكهة والزيتون فقد فرض عليه سداد نصف المحصول، ونقل وتسليم هذه الضرائب لسيد المستوطنة فى مخازنه، بالإضافة إلى ضرائب على إنتاج النشاطات المساعدة للمزارع مثل عسل النحل وحيوانات الحقل والطيور الداجنة، علاوة على تقديم المزارع المسلم هدايا إجبارية ثلاثة مرات سنوياً إلى سيد المستوطنة، تشمل طائر من الطيور الداجنة، وعشر بيضات ونصف رطل من الجبن وأثنى عشر بيزانت كثمن للحطب المستخدم كوقود، بالإضافة إلى إلتزام القن المسلم بالسخرة فى بناء القلاع والتحصينات الدفاعية،

يضاف لذلك فرض ضريبة نقدية موحدة على كل مسلم بالغ من المقيمين بالأراضى المحتلة تقدر بعملة ذهبية واحدة عرفت بأسم نوميزما، وهى عملة ذهبية مرتفعة القيمة، ولزيادة حصيلة الصليبيين الجشعة من هذه الضريبة تم تحديد سن الرشد للمسلم بخمسة عشر عاماً، يضاف لذلك ضريبة مستحدثة على كل سكان المملكة للدفاع عنها عقب زيادة النشاطات العسكرية الإسلامية فى عهد صلاح الدين الأيوبى (1183م)

والغالب أن سكان المستوطنات كانوا من طبقة البرجوازية والبولان (الصليبيون البلديون)، وهم يشكلون ميليشيات عسكرية بجانب أعمالهم الأصلية الحرفية والتجارية، مما يبين حقيقة عسكرة المجتمع الصليبى بالشرق (الجيش هو الشعب والشعب هو الجيش) ومما وفر معين لتغذية الجيوش الصليبية،

ولبيان الأهمية العسكرية للمستوطنات الصليبية نرى الحامية الفاطمية بمدينة عسقلان تهاجم مستوطنة البيرة 519هـ /1124م لوقوعها فى الطريق الرابط بين نابلس والقدس على بعد خمسة أميال شمال القدس، بما كان يمثل مركز دفاعى متقدم لعاصمة المملكة اللاتينة، وأستطاعت القوات الفاطمية أن تستولى على المستوطنة قسراً "وحكموا السيف فى رقاب سكانه الذين هلكوا عن بكرة أبيهم، ولم يستثن من القتل سوى الشيوخ والنساء والأطفال إذ كانوا قد لجئوا إلى البرج" [43] ليسفر الهجوم عن مقتل جميع ميليشيا المستوطنة[44]،[45]

[43] وليم الصورى ج 3ص 39

[44] تاريخ الحملة إلى القدس ص214

[45] الملاحظ هو إستفادة الحركة الصهيونية بدراسة المستوطنات الصليبية لتتجه الحركة الصهيونية إلى إقامة مستوطنات ذات ملكية جماعية يديرها الكيبوتز (لم الشمل بالعبرية) وتتطور المستوطنة لما عرف بالموشاف (المستوطنة بالعبرية) وهى ذات ملكيات خاصة توفر الحماية للمدن الكبرى والمناطق الخالية من السكان، وكما توفر إنتاج زراعى صناعى خدمى للدولة الإسرائيلية وتمدها بالجنود، كل هذا قائم على تهجير السكان الأصليين من أراضيهم وإحلال المستوطنيين مكانهم

فرسان الهيئات الديرية